اقصوصه مصريه

قصة العدد

عندما تبصر القلوب

السيد محمود تيمور كاتب قدير وقصاص شهير يسمو بالنفس الى اجواء بعيده من الخيال السامي ويهبط بها الى اغوار عميقه من المعاني الدقيقه ، وهو اول عربي تعني المكتبة الغربيه بنقل آثاره وترجمتها . وهاهو يوافينا من مصر بهذه القصة الممتعه . فالبيان يقدم اكباره واعجابه بابن النيل كما يحرص بان يواصله بحسن ظنه وانتاجه القيم .

(البيان)

كنا ثلاثة من الأصفياء جلوساً تحت عريش في حديقة ساذجة بمغنى احدنا « رشوان » .

نحن هنالك في ارباض « مصر الجديدة » نشرف على ذلك الخضم العسجدي الزاخر في الصحراء المترامية الاكناف

واقبل خادم الدار يرفع عن المنضدة اقداح القهوه ... وفيما هو مدبر عنا ، قال :

أأضيء المصابيح ياسيدي ؟

فأجاب رب الدار ، وهو يحدق امامه في زحمة الظلام الزاحف على الصحراء :

كلا . . .

وانصرف الخادم توارى شبحه عتمة الطريق . . .

والتفت الينا « رشوان » قائلا :

ماالردع الظلام ايها الرفاق وماأحله !...

إني لأوثره على النور في مثل هذه المجالس الهادئة ، ندير فيها تلك الأحاديث العذاب التي تقتضي جوامن السكينة والصفاء لا بهرج فيه ولا ضوضاء ! . . .

كان مضيفنا يلقي بهذه الكلمات وهو مطوف ببصره حوله في الفضاء ؛ تهيم به النشوة ؛ وكأن وجهه في قسماته الحيية وجه عذراء .

فهمهم « حسنى » يقول :

انت على حق . . إن موضوعنا هو الحب ، ومن اولى من الحب بجو ساج تشيع فيه المساترة والتحرز ؟ !

واخرج « حسنى » علبة لفائفه ، وهم بأن يأخذ منها لفافة ؛ فابتدره « رشوان » بقوله :

أتريد ان تخدش ستر الليل بجمرة لفافتك ؟ فأدخل « حسنى » علبة لفائفه في جيبه ؛ ونهض بقامته الفارعة الرشيقة ، ووجهه الطويل الدقيق ، ووضع يده على مسند مقعده ، وقال :

أنت في هذا محق . . . لن اخدش ستر الظلام !

وأخرج سبحته يعبث بحباتها . . .

وغشى الصمت هنيهة ؛ فقلت :

إني أخشى أمرا . . .

فقال « رشوان » :

ماذا تخشى ؟

طلوع القمر . . .

لو طلع لنم علينا حقا . . إن ضوءه ليكشف ادق الخوالج والحب لا يلائمه إلا الغموض والخفاء . . . لهذا القمر وسوسة مهما تكن عذوبتها فانها فيما أرى تشوب السكون المنشور هذا الملك اعده متطفلا يقتحم نفسه دائما في مثل هذه الخلوات علينا إذن ان نكمل حديثنا قبل ان يفجأنا ذلك الواغل ليشركنا فيما نحن فيه . . .

أية مرحلة بلغنا من مراحل الحديث ؟

كنا نضع تعريفا للحب يكشف حال المحبين . . .

مازلنا في حيرة من امر الصيغة التي يتم بها التعريف !

حقا إننا لاغرار ... من لغو الحديث ان نحاول وضع تعريف محدود لتلك العاطفة السحرية التي لا تحد .. إن اية لغة من لغات العالم ليعز عليها ان ترسم لهذه العاطفة حدودا ومعالم الحب لغة القلب ونجوى الضمير . . .

فخطا « حسنى » بضع خطوات ، والسبحة في يمينه ، تتوالى حباتها بين إصبعيه ، وقال :

في مكنتي ان اضع تعريفا اقرب الى تمثيل الحب للاذهان وامسك لحظة ، ثم استأنف قائلا :

ليس الحب اكثر من قوة كهربية . . وماقلب الرجل الا « بطارية » موجبة ؛ على حين ان قلب المرأة « بطارية » سالبة

فغمغم « رشوان » :

قوة كهربية ؟ « بطارية » ؟ اتريد ان تقحم الحب في مجال العلوم وميدان الصناعات ؟

اني لفاعل ، ومافي ذلك ضير . . ان القوى الكهربية لتتصل بكل شيء ، حتى انها لتتسلل الى القلوب والارواح . . وهل يقوم كيان الوجود إلا على الذرات الكهربية والتفاعل بينها ؟

حسناً ، فلتشرح لنا كيف يتولد الحب فيما ترى ؟

هين من الامر ، الحب قوة كهربية سياحة هائمة في الاجواء والآفاق ، لاتفتأ تهيم وتسيح حتى تقتنصها « بطاريات » القلوب ، وليس كل مايتصل بالحب من الوانه وظواهره وتقلباته الا من اثر تلك المولدات الكهربية ونوعها وما هي عليه من تفاوت في التكوين والاستعداد . . .

فقلت ، وأنا أرنو الى « حسنى » في عجب :

وهذه القوة الكهربية التي تصفها : كيف تقتنصها القلوب ، وهي هائمة شرود ؟ افي مستطاع كل قلب ان يقتنصها

ان الاقدار تلعب في هذا الشأن لعبتها الكبرى ... اذا شاء القدر القى اليك وإلي من كثب ان تكون شريكتك في الحب بهذه القوى ، فسرعان مايقتنصها القلبان ، وسرعان مايتصل التيار . . .

فهمهم « رشوان » : والعين ؟ ألا حظ لها فيما يكون ؟

فأجابه « حسنى » :

حظ ليس بالموفور . . . ربما احببت دون ان تتوضح لك صورة من خفق لها قلبك . . . وهل يستعصى الحب على من يفقد النظر ؟ ... للقلب بصيرة نفاذة يتضاءل إزاءها لحظ العيون ، فلا غرو ان تقع في شأن الحب احداث تبدو غرائب ومعجزات تضل فيها العقول . .

فترددت على شفاهنا همسات تعجب وتساؤل : أية غرائب وأية معجزات ؟

فقال : في المثل مايغنى عن طول النقاش . سأقص عليكما ماحدث لي ، وفيه لكما مقنع . .

ورجع « حسنى » الى مكانه ، فاستوى على كرسيه ، يقص قصته رانى العين الى مايحيط بنا من استار الدجى . .

ـ قال : الحق ياصديقى انى لاأدري كيف اجلو لكما حقيقة ماوقع لى : احبّ هو بمعناه الاصيل ؟ ام عاطفة طارئة هي ؟ ام نزوة من نزوات الغريزة وفلتة من جماع الشباب ؟! وإني لأرى على اية حال ماجرى لونا من الوان الحب ، مظهراً من مظاهره ... وان تفرد بالشذوذ عن المألوف !

ولقد بلغ من غرابته اني اكاد اكذب حسى ، وانكر ذاكرتي . . . ولكنى على الرغم من ذلك ارى تلك الحادثة تبدو واضحة جلية وان تمت مشاهدها في لجة الليل ! . . . إنها قصة الظلام والخفاء ! . . .

كان ذلك منذ سنوات ، يوم كان الثغر الاسكندري هدفا للغارات الجوية تزعجنا بها الطائرات في الاماسي !

وكنت حديث عهد بالانتقال الى مسكني الجديد ، اقيم في شقة صغيرة تناسب عزباً مثلى يعيش وحده ... وكان عملي في قسم الصحة ببلدية « الاسكندرية » يقتضى ان امكث في في مكتبي معظم اليوم ، وطالما تناولت طعامي خارج البيت وما كنت اعرف من شئون جيرتي شيئا ذا بال ، وان علمت ان الكثير من سكان الدار ترحلوا الى الريف نجاءً بأنفسهم من الأخطار !

وتوالت بضعة ايام دون ان تروعنا الغارات ، ولكن فترة الأمان لم تطل ، فقد حدث ليلة ان صيحت صفارات الانذار بصوتها الارعن تنعب ، فقفزت من فراشي ، وارتديت ملابس على عجل ، وهرعت هابطا الدرج الى مخبأ الدار ، ولم يكن مخبأ مكتمل الأدوات وافيا بالغرض ، وإنما هو هو او شبه هو عتيق مهجور استخدم مخزنا للأنقاض ، فأعد إعدادا سريعا ليأوى اليه الهاربون من قذائف السماء !

وما ان دخلت فيه حتى ألفيت بعض الاشباح قد تجمعت في ركن منه ، هذا يدعو ويتضرع ، وذلك يبدى الشجاعة ويطمئن جاره ، وهو احق بالتشجيع والاطمئنان ، وآخر معابث يستهويه صوت القذائف ، فهو يستمع ويهتز . . .

وقد لبثت بجوار الباب مشغولا بأمرى عن متابعة اللغط والتصايح . . .

وكان للمخبأ منفذان : الباب الذي اجاوره ، وشباك يتسلل منه بصيص من النور الازرق منبعث من مصباح

الطريق . . . فكان هذا البصيص كل نصيبنا من النور في مخبئنا الموحش . . .

وما هي الا ان ارتجت السماء بقصف القذائف ، فاشتدت الجلبة وعلت الصيحات ، وتراجعت ملتصقا بالجدار امسك بعوارض الباب . . . .

ولم اكد افعل حتى مست يدى كفا رخصة ، ولكن ماسرع ان ارتدت هذه الكف حين شعرت بأنها مست يد إنسان . . . وطالعت على الفور في الشعاع الأزرق الشحيح وجهانسويا لم المح منه الا معارف غير متوضحة . . . ووقع في روعى انه وجه عذراء . . . ولست ادري على وجه التحقيق اتبادلنا خواطف النظرات ؟ ام ان ذلك لم يقع ؟ . . .

ورأيت الشبح يدلف ، ومن خلفه شبح رجل يدفعه وهو يهمهم راعش الصوت :

لوطاوعتنى ورحلت معك الى الريف ، لكنت بنجوة مما ترين !

وانحنى الشبحان ركنا بعيد اعنى ، واستخفيا فيه ، فاندمجا في ظلمته . . .

وتواصل قصف القذائف في شدة وعنف . وما كاد ينفذ الى المخبأ ضوء احمر خاطف من اضواء القذائف ، حتى احسست شخصا ينبعث من ركن الرفاق قاصدا الى الشباك ، فيحكم إقفاله ، وهو يصيح :

اغلقوا الباب . . .

ووجدتني ادفع مصراعه دفعا ، فأطبقت على المخبأ ظلمة متلاحمة . . . .

وكانت القذائف مابرحت تقصف ، وتصايح الرفقة يتزايد ، وانا في موقفي بجوار الباب . . .

إنه لشعور عجيب ذلك الذي استولى علي فى تلك اللحظات . . . اضطراب جامح يمتزج فيه الخوف بالجرأة ، والتخاذل بالتشجع . . . ثورة عارمة جاحمة !

واحسست الأرض تزلزل تحت قدمي ، والجدران تميد حولى . . . وأيقنت ان الدار ستخر ، وأننا بعد قليل هالكون تحت الأنقاض . . .

وثارت بي رغبة في الحياة متقدة ونزعة تدفعنى الى التشبث بالعيش . . . وطفح قلبي بشعور التطلع الى الاستمتاع بمتعة غالية !

إن تلك المتعة لتتراءى لي شائقة خلابة تستهوني اشد استهواء . . .

إنها لتتمثل لي كالطائر يوشك ان يخف بجناحيه . . . فعلي اقتناصه قبل ضياع الفرصة وفوات الأوان . . .

وتتابع وجيب قلبي ، وكأن نارا تلتهمنى . . . وخطوت أسير ، أسير في يقظة ونشوة . . . إلى اين ؟

كانت قدماي تدفعان بي دفعا وتشقان بي الطريق ، تهديانى مسلكه ، وتقياني العثار في اكداس الظلمات !

وإذا بي اشعر بأنها هي تواجهنى . . .

وفي لمح البرق ذنوت منها ، ووجدتنى آخذ برأسها بين يدي وهويت على فمها بقبلة ظامئة متلهبة ... ولا اذكر ماذا كان مبلغ استجابتها هي لي في هذه القبلة ... وما احسبني سمعت نأمة الدفاع او تمنع ، وإنما هي انفاس حارة مشبوبة !

وعدت ادراجي الى مكانى جوار الباب ، تغمرني راحة ورضا . . .

ولبثت لاأعبأ بشيء . . . .

كنت أحس إحساس الروح وقد تخلصت من ربقة الجسد ساعة الاحتضار ، وانطلقت اول ماانطلقت في ذلك العالم الاثيري الفسيح الخالص من قيود الزمان والمكان . . .

وقفت وطال وقوفي ، تهيم بي الأحلام . .

وانبهتني يد تهزنى ، وصوت يقول :

لقد اطلقت صفارة الأمان . . .

فصعدت على التو الى حجرتي ، والقيت بجسمي على سريرى ، وطوحت بي غيبوبة حالمة .

وفي صبيحة غدي ، صحوت من نومي ، افكر على الفور في حادث الليل . . . واستويت على سريري ، وقد انسرح بي الخاطر الى آفاق عالية نائية . . .

أكان ما اذكره حقا ؟ !

احدث ان قبلت عذراء المخبا ابان الغارة الشعواء تحت استار الظلام ؟ ام هي اخلاط اوهام ، واضغاث احلام ؟

وخطر لي ان اسأل بواب الدار عن ذلك الأب الذي حل المخبأ وفي صحبته ابنته . . . وهممت ان افعل ، لولا ان ردني عن ذلك وازع نفسي دفين . . .

كنت اخشى امرا واحدا ، هو قطع الشك باليقين . .

ماذا يكون من امري لو عرفت حقا ان الحادث الذي اذكره قد وقع صدقا لاوهم فيه ولا خيال ؟

وما ذا يكون من امري لو تبين لي ان نشوة الليل ومغامرة الخبا لم تكن كلتاهما الا باطلا من الا بهام ؟ !

اني لأحتفظ بتلك السعادة التي اسبح في موجها الآن ستعيد متعة القبلة ، حقا كانت او باطلا . . . واهنأ بأن ارسم لنفسي صورة حسنائي كما يتطلع اليها خيالي !

كنت بهذا محبورا ، لاارجو المزيد . . .

وقضيت يومي على مألوف العادة خارج الدار ، ازاول عملي الراتب ، ولكن تلك الصورة الغامضة كانت تتمثل لعيني ، وتشغل اقطار فكري : ذلك الظلام الموحش ، قصف القذائف المدوي ، زلزال الدار العنيف ، تصايح الرفاق المتواصل ، وتلك القبلة تلتهب الثائرة التي لم تعبأ بشيء . . .

ني لأحس وقدة القبلة تلتهب بها شفتاي !

وان تلك الأنفاس الحارة لتصافح وجهي ، ويملأ وسواسها مسمعي !

وفي مستهل العشية رجعت الى داري ، واستلقيت على فراشي التمس الكرى ، وما كادت عيناي تطعمان النوم غراراً حتى بدد إعواء الصفارة يشق اجواز الفضاء . . .

فاعتدلت على فراشي ، اصغي ولا اتحرك . . .

وتلاطمت الأفكار في رأسي ، وعن لي ان ابقى في حجرتي ، لاازايلها في فترة الخطر ، وكأني اتوقع خطرا اكبر اذا برحت الحجرة هابطا الى المخبأ . . .

وكانت دقات قلبي تتوالى في عنف . . .

واحسست كأني اخوض معركة نفسية بين سلب وجذب ، وكان حربا تشن علي لتردني عن عزمي على البقاء !

ثمة حوافز تدفع بي ، وتملك مشاعري . . .

ووجدتني اترك في سرعة فراشي ، والقى كساء على كتفي ، وانحدرت على الدرج ، وكان الظلام دامسا ، فلم اكن استبين طريقي الا تلمسا وتخيلا . . .

وتسللت ادخل المخبأ دون ان يحس بي احد . . .

لقد كانت القذائف ترج الدار رجاً ، ولزمت مكاني الذي كنت فيه ليلة امس ، وظللت احدق في غمرة الظلمة تحديقا حاراً ، كأني أحاول ان اخترق سجف الظلام باحثا عن شيء .

وكنت اشعر على الرغم من صحوة نفسي بأني مقبل على تخدر وفتور ، كما يكون حال المريض قبيل العملية الجراحية اشد مايكون يقظة نفس حين ينشقه الجراح مخدرا يسامه الى رقاد عميق .

ولبثت في وقفتي احدق وقتا لا اعرف اطال حقا ام قصر . وبما عنت ان آنست طيفا يقترب مني ، ووجها يتدانى إلي . وما هي الا ان شعرت بأنفاس حارة تصافح وجهي ، وشفتين تلتحمان بشفتي . ثم تباعدت الشفتان ، وتزايل الطيف ، وانا في مكان مسحور هيمان ! .

وظللت في موقفي لأريعة ، وكأني انصهر وأذوب متطايرا في آفاق فساح .

ولم اثب الى رشدي ، الا حين لكزني رجل ، وهو يصيح بي قائلا :

لقد انطلقت صفارة الامان . . .

فسموت الى حجرتي هين الخطوات ، ورميت بجسدي على الفراش ، واسلمت نفسي الى سبات أو مايشبه السبات .

وما كدت استوى على سريري في صحوة غدى ، حتى اهتاج فؤادي ، وامتلكتني حيرة ممضة .

ثمة وجد وحنين يلهبانني !

إني لأتعذب حقا !

وما فتئ الوجد والحنين يثوران بي حتى لم تعدل باحتمالهما طاقة . .

فاستبدت بي فكرة .

يجب ان أكتمه ذلك اللغز المحير العويص .

يجب ان اعرف من هي عذراء الخبا .

وارتديت ثيابي على عجل ، وهرولت اقصد باب الدار .

وبينما كنت اهبط الدرج ؛ طرق اذني دوى القذائف

فالتبس على امري ، وارهفت السمع استوضح هذا الدوي.
وماهي الا لحظة حتى انبعث نعيب الصفارة ، فاختلط صوتها الحاد بدوي القذائف المجلجل .

واشتد وقع القذائف كأنها تسقط على قيد خطوات وانتشر الفزع ؛ وتجاوبت الدار بهرج ومرج ؛ واستغاثة وتلهف .

ولاحظت ان درج السلم يتداعى تحت قدمي ، والجدران تترنح حولي . .

ووجدتني اقفز على السلالم مثنى وثلاث ؛ وكان التراب يتساقط علي كالمطر المنهمر ، ولم البث ان رأيت الاحجار تترامى والغبار يتكاثف . وبلغ التصايح اشد مبالغ ، واصابني ذهول ، فلم أدر أية وجهة اسلك ؛ واي طريق اتجنب ؟

وبرقت الخواطر في رأسي ، يشتبك بعضها ببعض .
ليت شعري : ماشأن الفتاة وأبيها في تلك الكارثة السوداء
وفي تلك اللحظة دوى صوت شديد عن كثب مني ، وتهاوى بجواري جدار ، فشعرت بنفسي أهوى ، وافقد وعيي
ورجعت الى يقظتي ، فوجدتني في حجرة ازدحمت بالجرحى ، بين معصوب الرأس ، أو مضمد الذراع ؛ اومجبور الساق . . .

فرفعت بصري اتبين الامر ؛ فمر بي فتى في لبوس التمريض فاستوقفته قائلا :
ماذا ؟
فقال وهو يهم بمتابعة السير :
احمد الله على ان كتبت لك النجاة . . . ان جرحك هين
والفيتني افكر في امر ذي بال . . .
أتراها هي بين النزلاء في هذا المستشفى ؟
ونهضت من فوري اتحامل على نفسي ؛ وجعلت اتصفح الوجوه في اهتمام وتلهف ؛ ورحت أسأل هذا وذاك ؛ فلم اعثر على طلبتي ؛ ولم اصل في هذا الامر الى قرار تطمئن به نفسي . . .

وبارحت المستشفى ؛ قاصدا داري ؛ فما إن دخلت الحي حتى راعني ماأصابه من تدمير . . .
رقعة من الارض يتعالى فيها الركام والحطام من انقاض الابنية والدور ! . . .

وشخصت ببصري اتبين المنزل الذى اسكنه ؛ فلم تقع العين إلا على اطلال . . .
فوقفت مستندا الى جدار مهدم ؛ اتأمل هذه الرسوم وقد طوفت بمخيلتي مناظر وذكريات . . .
وطالما سنح لخاطري هذا السؤال :
ماذا كان نصيبها هي من هذه الغارة الماحقة ؟ !
وما زلت حتى الساعة القى على نفسي ذلك السؤال ؛ ولا اجد السبيل ! الى مايشفي من جواب !
ولما بلغ « حسني » من قصته هذه الغاية ؛ شملنا صمت مديد . . .
واحسسنا الظلمة حولنا ترق ؛ وقد شرع يعبث بها ضوء الجيني . . .
واذا بوجه ذلك الطفيلي الامرد يتراءى في الافق البعيد ترف على محياه إشراقة وضاحة ؛ وكأننا نسمعه يهمس :
فيم كنتم تتحدثون ؟
فتنفت كل منا الى صاحبيه ؛ نتبادل الانظار ؛ وقد لاحت على وجوهنا بسمات هزيلة . . .
ولكننا مكثنا صامتين ؛ لاحركة ولا كلام ! ! . . .

القاهرة — محمود تيمور

يافتنة النساك

للمرحوم السيد خضر القزويني

رحماك بي يا فتنة النساك   فلقد قضيت من الجفا رحماك
حتى متى هذا الصدود ولم يكن   رغم الابا قلبي اسير هواك
فدعي الوعيد وانجزي ياموعدي   فلقد وهى جلدي لطول جفاك
مني علي برشفة تحيا بها   نفسي فان حياتها بماتي
ما انت إلا فتنة لاولي الهوى   وكذاك ربك فتنة سواك
فلذاك قد حالت سفاك دمي بلا   ذنب بماضي لحظك السفاك
ومنعتني الوصل الحلال فمن بذا   وبذاك في شرع الهوى أفتاك
اشجى الحمائم رقة نوحي ومن   قد لامني فيك وما اشجاك
لو ان قلبك قد من صم الصفا   لألاؤه عتبي فلنت صفاك